(٣)

فإن شئنا نأمل خصوصية أداء الشاعر هنا بين شعراء عصره بدا لنا وكأنما استطاع أن يسمو بنفسه فوق الحدث المرير الذى عاشه ، فبدا صادقا فى أدائه عبر ماضيه وحاضره معاً ، إذ لم يمنعه إحساسه بقرب الموت من أن يصدق فى التعبير عن لحظة المواجهة فى تفاعلها مع لحظة التذكر في آن واحد ، وكأن الذاكرة لديه تظل فاعلة عبر الاتجاهين : اتجاه المفاوض المرن حين يتحايل ويراوغ ، واتجاه الفارس البطل الذى لا يتوانى عن جمع معالم بطولته من خلال شريط الذكريات ، وبينهما يصر على طرح تناقضات عواطفه من خلال صيغ تعبيرية متوازنة تكشف عن أعماق حالته النفسية فى كلٍّ مما يكشف عن أمرَيْن :

أولهما : طبيعة معايشته الحقيقية للحدث وصدوره عنه بهذا العمق من خلال صوره وتقاريره .

ثانيهما : ربط مقومات البناء الفنى للقصيدة بتلك الدفقة الانفعالية الدالة على دافعه النفسى فى هذه المنطقة المتاحة من مناطق الرثاء .

صحيح أن لقصيدة الرثاء موقعاً خاصا على المستوى الانفعالى باعتبارها لحظة صدق متميزة إذا أخذنا بما جاء فى المرويات حين قيل لأعرابى : مابال المراثى أجود أشعاركم ، قال لأنا نقول وأكبادنا تحترق [١] .

ولكنها تبدو هنا أشد ما تكون صدقاً فهى لحظة لمراجعة تاريخ النفس ، وهى مقارنات بين ماض وحاضر تتلاقى بينهما العناصر الدرامية ، وتتكشف من خلالهما جوانب الصدق ، مما يجعل القصيدة وحدة فنية متكاملة لاتعرف التمزق ولا انفصام الأجزاء ولا تباعد الصور كما عهدنا فى غير هذا الموضوع ؛ ذلك أن القصيدة قد صدرت عن وحدة انفعالية ووحدة زمانية وأخرى مكانية ، فلم يشأ الشاعر تمزيقها بقدر ما قصد إلى تجميع وحداتها فبدت واضحة الفكرة ، متكاملة النسج ، موحدة البناء بما يشيع فيها من توحُّد نفسى ومباشرة ، إلى جانب الحضور الذهنى للماضى مع الحاضر فى توحُّد آخر بدا شديد التمايز والظهور .

وبذا تبدو الصور الكلية للنص أشد ارتباطا بحالة الشاعر فى موقف الأسر ، مما قد

---

(١) البيان والتبيين ٢/ ٣٢٠ .